شهيـــــد القرية

للاستاذ مصطفى أحمد فوده

« قصة شابين وفتاة : احدهما أراد أبوه أن يزوجه منها ، لتكون أمها زوجاً له ، وأحبت هى الآخر وأحبها ، وأرادت أن تزف اليه عروساً ، فدبرت معه مكيدة تم لهما بها ما أرادا . »

لم يكن الحزن يعرف سبيله إلى قلب هذه الأم ، ولم تكن هى الأخرى تقدر أنه سيعرف سبيله إلى قلبهـا فى يوم من الأيام . ولـكن المقادير لا تجرى كما نريد ، بل تجرى كما تريد هي؛ والحزن لم يكتب على قلوب دون سواها ، وانما هو بلاء يصيب القلوب جميعا ، لا فرق فى ذلك بين قلب وقلب ، إلا فى نصيب أحدهما منه؛ فقد يقسو الحسن فلا يعرف رأفة ولا رحمة ، وقد يترفق فيمس القلوب مسا هينا رفيقا ، ولا فرق فى ذلك كـذلك بين قلب وقلب الا فى الزمن الذى يصيب فيه الحزن أحدهما؛ فقد يتعجل به ويعرف سبيـله اليه فى شرخ شبابه ، وقـد يتأنى فلا يطرقه الا فى سن الشيخوخة ، وقد يقيم فيه لا يفارقه كأن بينهما عهدا لا يريد الحزن أن ينقضه

ذاقت هذه الأم مرارة الحزن ، وعرفت تباريح الأسى حين وقفت إلى جوار وحيدها ابراهيم وهو يفارقها لا إلى عمله كما هى عادته عند كل صباح ولـكن إلى قبره؛ وكان الموت حينذاك قد أراد أن يكون رفيقا بالفتى ، فلم يمهله طويلا يتلوى على سريره حينا ، ويغادره حينا آخر ليستلقى على الأرض ، ثم يتركه ليطمئن إلى صدر أمه ، وليحتويه ذراعاها ، حتى يفارق الحياة أو تفارقه الحياة . وكأن الحزن قد أراد أن يكون قاسيا بالغ القسوة حين أبى إلا أن يستقر فى قلب هذه الأم ، حتى أنست اليه أخيرا ، وأصبحت تجد فيه عزاءها وسلواها .

***

كان « ابراهيم » فتى من فتيان هذه القرية التى تقع غير بعيد من ترعة صغيرة تجرى فى شرقها ، والتى يعمل أبوه « شيخا لخفرائها » وكان هذا الفتى يحمل بين جنبيه قلبا كريما لم يكن ليحمله إلا أطهر الناس نفساً ، وأنقاهم سريرة ، وأخلصهم لحقوق ربه ، وحقوق غيره وحقوق نفسه . ولم يكن كـغيره من شباب القرية الذين يوزعون وقتهم بين عمل ضئيل وعبث كـثير؛ وانما كان يقضى نهاره كله فى عمل يضنيه ، وينفق ساعة أو بعض ساعة من ليله فى السمر مع أمه ، ثم ينهض إلى فراشه لينام نوما عميقا يكسبه عزماً وقوة ، حتى إذا كان الفجر ، ينهض من نومه ليؤدى فريضة الصبح ، ثم يعتمد فأسه ويذهب إلى حقله . ولم يكن الفتى مع عمله هذا الـكثير ـ ليغفل أداء صلواته ، وانما كان حريصا على أدائها فى أوقاتها ، فكان سلوكه موضع إعجاب شيوخ القرية ، يكبرونه إكبار إكـبار ، ويثنون على أخلاق أجل ثناء؛ وكان سلوكه هذا نفسه موضع سخرية غيره من شباب القرية الذين فتنتهم زينة الحيـاة الدنيا ، فـكانوا ينقدونه مر النقد ، ويبشرونه بالـكهولة فى غير أوان . ولـكن الفتى لم يكن يفرح لثناء المعجبين ، ولا يغضب لنقد الساخرين ، وانما كان يمضى فى سبيله تلك التى رسمتها له المقادير ولم يرسمها هو لنفسه ، والتى شاء أن تكون طاهرة طهر نفسه ، نقية نقاء سريرته .

* * *

ولم يكن « ابراهيم » يجلس إلى أبيه إلا لماما ، ولم يكن يراه فى أغلب الأحيان إلا حينا يكون ذاهباً إلى عمله مع الصبح ، ويكون أبوه حينذاك عائدا من حراسة القرية .

ولـكن أباه لم يخرج ذات مساء إلى أزقة القرية ليشرف على انبثاث العسس فى أرجائها . وانما يجلس إلى ابنه وزوجه يأخذ معهما فى أطراف الحديث ساعة أو بعض ساعة ، يحاول الفتى أن ينهض بعدها ليستريح مما أصابه من عناء العمل ، ولـكن أباه يستمهله قليلا ويخوض فى الحديث عن « آمنة »

***

وآمنة هذه فتاة ممشوقة القوام ، فائقة الحسن بارعة الجمال

ساحرة العينين ، طويلة الغدائر ، يفيض وجهها حيوية وأنوثة مات عنها أبوها وهي صغيرة . وأمها تعمل قابلة بالقرية ، تتردد على بيوت أعيانها في مناسبة وفي غير مناسبة ، ولها من الجمال والفتنة ومن طلاوة الحديث واتقانها لفنونه مايشجع زوجاتهم وبناتهم على إطالة الجلوس اليها ، واستزادتها من هذا الحديث الطلى الساحر

استمهل محمود ابنه ابراهيم قليلا ، وراح يخوض في الحديث عن آمنة ، ولم يكن هذا الحديث محببا إلى نفس الفتى ، ولم يكن الفتى يقبل عليه إلا بسمعه ، أما قلبه فكان بينه وبين حديث أبيه حجاب صفيق .

قال الفتى وهو ينهض للنوم : « أكبر الظن يا أبتي أن يبقى وبين الزواج أمدا طويلا ، لأنني لم أتهيأ بعد لهذه المخاطرة ، ولم آخذ عدتي بعد لهذه المعركة » فيجيب أبوه وهو يضحك « لقد ظلمت الزواج يا بني إذ سميته مخاطرة ، ورسمته في صورة معركة . إن الزواج يا بني نعمة ، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك :

وينهض الفتى بعد ذلك إلى فراشه ، ويحاول النوم ولكنه عبثا يحاول ! ! إن شيئا يحول بينه وبين النوم لم يألفه الفتى من قبل ، ولا يستطيع أن يجلو لنفسه حقيقة أمره ويحاول الفتى أن يهرب من هذه الفكرة التي ألمت به وألحت عليه ؛ فقد استقر في نفسه أنه سيلقى حتفه على يدي هذه الفتاة

ومازالت هذه الفكرة تلح عليه ، وما زال هو يمعن في محاولة الهروب منها حتى استطاع أن يظفر بقسط ضئيل من النوم في الهزيع الأخير من الليل . ولكن الفتى مع ذلك يستيقظ على صوت رفيق رقيق « الله أكبر ، الله أكبر . . . » فينهض ليؤدي صلاة الصبح كما هي عادته ويتناول فطوره ، ويحزم غداءه في منديله ، ويعتمد فأسه ، وينصرف إلى عمله ليشارك زملاءه في عمل الحقل . . . ولكنهم يلاحظون أنه على غير عادته ، فهو مهموم حزين ، أو كالمهموم الحزين ، وهو مطرق ، مفكر دائم التفكير ؛ واجم مغرق في وجومه ؛ مزور عنهم وعن الحديث اليهم كل أزورارا .

وبينما هو يجلس وحيدا كئيبا ، يتناول غداءه تحت شجرة على غير عادته ـ فقد عود اخوانه أن يشاركهم حلقتهم تلك التي تكتملهم ، لاللحديث في شأن من شئون الزراعة ولكن لملء بطونهم بشهي الطعام ـ بينما الفتى يجلس وحيدا كذلك إذا بأحد زملائه ينهض اليه يسأله عن سبب إطراقه ووجومه ، فيجيب « ابراهيم » في غير تردد : « والله يا « سعيد » لقد كان من أبي ليلة أمس مالم أكن أتوقع . فقد عرض على أن محو يزوجني من آمنة ، بنت قابلة القرية ، تلك الفتاة الساحرة الفاتنة ، الساخرة بقلوب الشباب ، اللاعبة بعواطفهم . ولا يخفى ياصاحبي أن أمها أصبحت بعد أن مات عنها زوجها ، مطمع الأنظار والقلوب. ولست أدري ، أي شقاء ينتظرني لو يصر أبي على رأيه هذا !

وما يكاد « إبراهيم » يختم حديثه إلى « سعيد » حتى ينهض هذا الأخير وفي عينيه بريق الهموم ، وعلى وجنتيه احمرار الحنق ، وينصرف عنه وفي قلبه غيظ مكتوم .

و « سعيد » هنا فتى في ريعان شبابه ، أحب « آمنة » وصارحها بمكنون فؤاده ، فبادلته الفتاة حبا بحب ، ووفاء بوفاء ، واخلاصا باخلاص ، وتعاهدا على الزواج عندما يبيع أبوه محصول القطن ، وتمتلىء جيوبه بالمال ولم يكن « ابراهيم » يعرف مايربط بين قلب « سعيد » وقلب « آمنة » من حب ، وما تعاهدا عليه من زواج ، فلم يجد حرجا في مصارحته بما كان بينه وبين أبيه من حديث الأمس .

وقد استمر « ابراهيم » على هذه الحال من القلق والتفكير زمنا لايدري هو ، أطال أم قصر ، وإن كان يدري أنه كان يعود من عمله ليؤدي صلاة المغرب وصلاة العشاء ثم ينهض إلى فراشه دون أن يجلس إلى أمه ساعة أو بعض ساعة كما هي عادته ، وكانت أمه ترى في قسمات وجهه أمارات الحزن والشقاء وتسمع في صوته نبرات اليأس والقنوط . ولكنها ، مع ذلك ، لم تكن تدرك حقيقة ماترى وما تسمع ، !

وتمر أيام وأيام ، ويعود الفتى ذات مرة من عمله ليجد أباه في البيت ينتظر عودته ، فيسلم ويجلس إلى أبيه وأمه . وتمر فترة من

الزمن ، يصمت فيه الجميع ، لايدرى الفتى أطالت أم قصرت . وكأن أباه قد أراد أن يخرج من صمته فيقول لابنه وهو يضع بين يديه قلادة وقرطا من ذهب « هذه « شبكة » عروسك يابنى ، وما أرانا إلا أن ننهض الآن لتقدمها اليها ، فهى وأمها فى انتظارنا

وينظر الفتى إلى أبيه نظرة حائر ، ثم يحول بصره إلى أمه ويهم أن يقول شيئا، ولكن أباه لايمهله، ولسانه لايسعفه، وأمه لاتواتيها الحزم فتستمهل زوجها لتأخذ برأى ولدها . وينهض الجميع إلى بيت « آمنة »

***

بيت ريفى صغير ، فى زقاق ملتو ، أمامه مصباح زيتى كبير ، وفى داخله مصباحان ، حولهما فتيات يغنين ويزغردن . وماهى الا بعض ساعة ، حتى يدخل محمود وزوجه وابنه ابراهيم ، وتأتى فاطمة أم آمنة وتخوض مع محمود فى حديث لايكاد ينتهى، وكانت تتحدث اليه بلسانها وعينيها بل وقلبها كذلك وكان ابراهيم يجلس مهموما أو كالمهموم ، ثم تأتى آمنة فى ثوب أنيق رشيق، وينهض ابراهيم ليزين بالقرط أذنيها ويحيط بالقلادة جيدها؛ ولكنها مع ذلك كانت مهمومة هى الأخرى أو كالمهمومة ، فقد كانت تود أن تزف إلى « سعيد » عروسا كما تعاهدا على ذلك

وتمضى أيام وأيام ولا حديث لشباب القرية سوى ابراهيم وعروسه آمنة ، ولا هم لسعيد إلا أن يفكر كيف يمسح عن جبينه عار الهزيمة ، فتتصل الأسباب بينه وبين آمنة من طريق خفى ويتفقان معاً على مكيدة يقصيان بها ابراهيم عن طريقهما ويحولان بها بينه وبين الزواج منها .

وتمر الأيام كذلك ولاهم لمحمود الا فى التفكير فى الزواج من فاطمة تلك التى سحرته بجمالها الخلاب وبحديثها هذا العذب الساحر فقد أصبحت السبيل الآن أمامه ميسرة معبدة . ومن يدرى لعله لم يفكر فى زواج ابنه ابراهيم من هذه الفتاة الا ليكون ذلك بابا ينفذ منه إلى قلب أمها لتكون زوجا له فى يوم من الأيام

وتمضى الأيام كذلك ، والأسباب متصلة جهارا بين « آمنة » و « ابراهيم » من جهة ، وفى الخفاء بينها وبين سعيد من جهة أخرى .

وبينما الجميع كذلك تتصل بينهم الأسباب، إذ بإبراهيم يذهب إلى بيت « آمنة » ليقدم لها هدية أعجبته ، ويحدد مع أمها يوماً لزفافه، ويعجب ابراهيم لأمر آمنة فى هذه الليلة، فهى معه على غير عادتها، وهى ترحب به فرحة مرحة، وهى تتلطف فى حديثها اليه وهى تستمهله كلما أراد أن ينهض وهى تقدم اليه كوبا من شراب يتناوله فرحا مسرورا إذا لم تكن آمنه قد عودته أن تقدم اليه هذا النوع من الشراب ، وإنما هى « القهوة » تقدم اليه فى كل مرة

وماهي الا دقائق معدودات إذ بآمنة التى كانت تستمهل الفتى قليلا ، تستحثه الآن على النهوض . ومالها تستمهله وقد نفذت مكيدتها وتحقق لها ماأرادت وأراد من تحب وتهوى. ومالها لاتستحثه وهى تخشى أن يصيبه سهم القضاء وهو جالس اليها فى دارها.

وينهض الفتى وهو يحس بألم شديد ويسعى إلى داره حيث كان الموت ينتظره؛ وتسأله أمه عمابه، ولكنه لايجيب الا بهذه الحركات التى تدل على أن شيئا يقطع أحشاءه، فهو واقد يتلوى على سريره حينا، ويغادره حينا آخر، ليستلقى على الأرض ثم يتركها ليطمئن إلى صدر أمه ، تطوقه بذراعيها حتى يفارق الحياة ، أو تفارقه الحياة، وهو يقول « إن آمنة بأمى بريئة وفية لحبها ، وإن أبى هو الآثم » .

ويرتفع الضحى من الغد ،ولاحديث لشباب القرية وشيوخها إلا موت هذا الفتى البرىء الطاهر ، الذى راح ضحية رخيصة لشهوة أبيه

ويذهب محمود بعد ذلك يفتح لابنه ابراهيم باب القبر ،وراحت الحكومة تفتح لآمنة وسعيد باب السجن ، وراح شباب القرية يبكون هذا « الشهيد » الذى سخروا منه بالأمس ، كما راحوا ينثرون على قبره الأزاهير والرياحين .

وراحت أمه تنهض مع الفجر فى كل يوم لتروى بدموعها قبر وحيدها شهيد القرية » .

المنصورة **مصطفى أحمد فوده**